شهوة الكلام

تصوَّرْ مسألةً أوغلتَ في بحثها، فجمعت أشتاتها، واستقصيت أطرافها، واستبطنت دخائلها، وبلغ منك الجَهدُ في تحريرها، فبانت لك دقائقها، وأويت في راجحها إلى ركنٍ شديد، وأصلٍ متين، ثم جمعك ـ مرةً ـ مجلسٌ مع ذوي البسْطة في العلم، فابتدروا مسألةً للنِّقاش، فكانت مسألتُهم تلك المسألةَ التي لا تزال تَرِنُّ في رأسك، لقرب عهدك بها، فما أنت فاعلٌ في هذا المقام، وأنت تراهم يدوكون في المسألة دون أن يبلغوا فيها غاية؟

لا شك أن كثيرين سيقولون: إن كلامك حتمٌ لازمٌ؛ لأنك فقهت المسألة، وأحطت بها علماً، وسكوتك ضعف ومهانة!

وربما قال بعضهم: إن الحديث الآن فرصتك فلا تفوِّتها!

لكن الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ له نظر آخر يغيب عنا كثيراً، وقد حصل له موقف شبيه بهذا، حكاه ابن عبد الهادي، المعروف بـ«ابن الـمَبْرَد» فقال: «أُخبرت عن القاضي علاء الدين ابن اللَّحام أنه قال: ذَكر لنا مرة الشيخ ـ يعني: الحافظ ابن رجب ـ مسألة فأطنب فيها، فعجبت من ذلك، ومن إتقانه لها،

فوقعت بعد ذلك بمحضر من أرباب المذاهب وغيرهم، فلم يتكلم فيها الكلمة الواحدة، فلما قام، قلت له: أليس قد تكلمت فيها بذلك الكلام؟ قال: إنما أتكلم بما أرجو ثوابه، وقد خفت من الكلام في هذا المجلس»[(١)].

فتأمل هذه الحال التي تشتهي النفوس فيها الكلام، ومع ذلك يلوذ ابن رجب بالصمت، فلا ينبس ببنت شفة؛ وهو ابن بَجْدَتها، خوفاً من أن يُخْدَش إخلاصه، أو أن تتأثر نيته قائلاً: «إنما أتكلم بما أرجو ثوابه، وقد خفت من الكلام في هذا المجلس».

فلِلَّه درُّ هذه النفس الطاهرة!

وإنه لمقام عظيم؛ بمثله ارتفع القوم، وقارن هذه الحال بأناس في المجالس يستبِقون الإجابة، وهم لم يُسْألوا، ويتصدَّرون على الناس، وهم لم يُصَدَّروا، ويتكلمون بما لم يحيطوا بعلمه.

والراغب في النجاة عليه أن يجاهد نفسه في دفع هذا الداء؛ إذ ليس بالضروري أن يشارك في كل مسألة، وأن يكتب في كل نازلة، وليس بالضروري أن يغرد في كل وسم، وأن يتحدث عن كل حدث، وليس بلازم أن ينشط في النقاش في كل مجموعة!

---

(١) الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب الإمام أحمد (ص٥٢).

وليجعل كلمة الفضيل بن عياض نصب عينيه دائماً: «من أحب أن يُذكر لم يُذكر، ومن أحب ألا يُذكر ذُكِرَ»[١].

وأنزل كلمة الفضيل على موقف ابن رجب هذا، كيف دَوَّنت الكتبُ موقف ابن رجب هذا؟!

وكيف تروَّاه الناس وحفظوه، وعدُّوه من محاسن هذا الحافظ الكبير؟!

ولم يكن يعلم رحمه الله أن هذا الموقف سيكون له ذكر حسن عند الناس؛ فيرجى أن يكون من المخلصين، وهو القائل: (رائحة الإخلاص كرائحة البخور الخالص، كلما قوي ستره بالثياب، فاح وعبق بها)[٢].

فإن قيل: ما الضابط في هذا؟ وهل ينبغي للمرء أن يسكت أبداً؟

فالجواب عن هذا بيَّنه الحافظ الذهبي رحمه الله فقال: «ينبغي للعالم أن يتكلم بنية وحسن قصد، فإن أعجبه كلامه فليصمت، فإن أعجبه الصمت فليتكلم، ولا يفتر عن محاسبة نفسه؛ فإنها تحب الظهور والثناء»[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٣٢).

(٢) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب، تحقيق: طلعت الحلواني (٢/ ٧٥٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩٤).